روجيه غارودي

عن الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية

لنذكر أولا الاهداف الاساسية للصهيونية كما عبر عنها أكثر ممثليها بروزا . .

لقد أعلن بن غوريون في عام ١٩٦٣ ما أسماه « مملكة اسرائيل الثالثة » . والمملكة الاولى هي مملكة داود ، أما الثانية فهي التي أقيمت بعد ثورة المكابي في عام ١٦٧ قبل المسيح ضد خلفاء الاسكندر ، كما سبق له أن قال في المقدمة التي كتبها عام ١٩٥٤ لكتاب « تاريخ الهاغانا » الذي أصدرته المنظمة الصهيونية العالمية : « وفي الوقت الحالي نتحدث عن الاستيطان ، وعن الاستيطان وحده . انه هدفنا في المدى القصير ، لكن من الواضح ان انكلترا تنتمي للانكليز ، ومصر للمصريين ، واليهودية لليهود ، وليس في بلادنا مكان الا لليهود . اننا سنقول للعرب : « ابتعدوا » ، فاذا لم يوافقوا ، اذا قاوموا ، فسنبعدهم بالقوة » .

لقد ظلت هذه الفكرة الموجهة تلهم الادعاءات الاقليمية للقادة الاسرائيليين . وفي آب عام ١٩٦٧ أعلن الجنرال موشي دايان : « اذا كنا نمتلك الكتاب المقدس ، واذا كنا نصير انفسنا شعب الكتاب المقدس ، فان علينا بالمثل أن نمتلك أرض الكتاب المقدس ، أرض القضاة والآباء ، أرض أورشليم وحبرون وأريحا وغيرها ، وأنا لا أعرض هنا برنامجا سياسيا ، وانما أعرض أمرا أكثر اهمية ، أعرض الوسائل لتحقيق حلم الآباء . وعلى الدول الاجنبية أن تفهم انه بالنسبة لاسرائيل ، بغض النظر عن الاهمية الاستراتيجية ، تقع سيناء ومرتفعات الجولان ومضيق تيران وجبال غرب الاردن في قلب التاريخ اليهودي » .

ويكافح مناحيم بيجين قائد اليمين الاسرائيلي من أجل ما يسميه « اسرائيل الكبرى » التي لا بد أن تضم كل المنطقة التي كان يسيطر عليها الملك داود والملك سليمان قبل ثلاثة آلاف عام .

ما هي الحجج التي تعد أساس هذه الايديولوجية الصهيونية ؟

١ ـ اولا حجة دينية :

هي حجة العهد الذي قطعه يهوه مع الشعب اليهودي حين جعله « الشعب المختار »

والنص الذي يستند اليه الصهاينة هو النص الذي يمنح كل أرض كنعان لابراهيم « وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ... » (سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر الآية ٨) .

ويكشف هذا التفسير للكتاب المقدس القائم على عزل النص عن مجموع نصوص الكتاب المقدس ، وعن الاطار التاريخي ، عن تصور قبلي للدين . فالواقع ان العهد قد صيغ في أيام ابراهيم وفق نموذج العلاقات الاجتماعية في الشرق الاوسط كله في ذلك الحين : اذا كانت قبيلة تتعاهد مع سيد ما تتعهد بالطاعة مقابل حمايته . ويختم هذا الميثاق ـ كما ذكر الكتاب المقدس ـ بذبح حيوانات التضحية . ويعد الختان رمزا لهذا العهد (سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر الآية ١٠) .

وبتفسير العهد بهذه الطريقة يعني التمسك فحسب بالجوانب الخارجية الحرفية البالية لنصوص الكتاب المقدس للتمييز بين المختارين وغير المختارين .

اما ما هو أساس في تراث ابراهيم ، وتراث أنبياء اسرائيل العظام ، ثم العهد الجديد ، ثم القرآن ، فهو بالتحديد التصور العالمي الذي يخطى التمييز بين المختارين والمستبعدين ، الامر الذي لا يمكن بدونه ـ كما لاحظ جورج فريدمان عالم الاجتماع اليهودي الكبير عند عودته من اسرائيل ـ القيام بتجديد ديني لانقوي في اسرائيل . فهو يقول : « ان الدين ينتزع من جذوره الحية ، ويعزل داخل قومية متكاملة » .

ان هذا « التصلب من جانب المؤسسة الدينية » يترك آثارا سياسية خطيرة ، فهو يؤدي الى اضفاء شرعية دينية على النزعة القومية . ولقد كانت حجج كهذه هي التي يبرر بها المسيحيون العداء للسامية ، اذ يتهمون اليهود بانهم مسؤولون عن موت المسيح .

وذلك في حين تتخطى التوراة والانبياء هذه النزعة الطائفية ، اذ يتحدث سفر التثنية (الاصحاح العاشر ، الآية ١٦) والنبي ارميا (الاصحاح الرابع ، الآية الرابعة) عن « ختان القلب » أي عن التحول الداخلي للانسان بحلول الله فيه وليس عن مجرد الطقس الشكلي .

ان المسيحية باعلان « العهد الجديد » اي العلاقة الشخصية بين كل واحد وبين الرب ، تتخطى النزعة الطقوسية . ويقول بولس الرسول ـ وهو يهودي بالمولد ـ بوضوح (رسالة الى اهل غلاطية ـ الاصحاح الخامس ، الآية السادسة) : « لانه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئا ولا الغرلة بل الايمان العامل بالمحبة . ليس الطقس وانما الاتحاد بالله هو الذي يطهر القلوب » . ويضيف بولس الرسول (رسالة الى أهل غلاطية ـ الاصحاح الثالث ، الآية الثامنة) : « والكتاب اذ سبق فرأى ان الله بالايمان يبرر الامم سبق فبشر ابراهيم ان فيك تتبارك جميع الامم » (تكوين ـ الاصحاح الثاني عشر ، الآية الثالثة) .

وباسم هذه العالمية التي تستبعد كل عنصرية يستخلص بولس الرسول (رسالة الى أهل غلاطية ـ الاصحاح الثالث ، الآية ٢٨) : ليس يهودي ولا يوناني . ليس عبد ولا حر » .

ان كاتب « الرسالة الى العبرانيين » (الاصحاح الثامن والتاسع) يقطع كل صلة بمزاعم تميز شعب مختار ، فالرب هو رب كل الشعوب .

ويسلمهم القرآن ـ وهو بدوره وريث تقاليد ابراهيم ـ نفس النزعة العالمية العامة ونفس النظرة الى الداخل الروحي في تفسيره للعهد ، انه عهد مفتوح امام كل من يعملون وفق الروح الالهي : « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » (سورة البقرة ـ الآية ١٢٤) . فلسنا اذن أمام عهد بحكم الدم وانما أمام ميثاق للقلب . يقول الرسول : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكانت بربرية هتلر هي التي جعلت من الختان رمزا لجنس ، ودبرت المذابح لليهود .

وباسم العنصرية عرّفت قوانين نورمبرغ النازية اليهودي بأنه من ولد لأم يهودية . ويقول حاييم كوهين القاضي بالمحكمة العليا الاسرائيليه : « ومن سخرية القدر ان نفس الافكار البيولوجيه والعنصرية التي روج لها النازيون ، والتي ألهمت قوانين نورمبرغ الشائنة هي التي تعد أساس التعريف الرسمي لليهودية داخل دولة اسرائيل » (أنظر جوزيف بادي : « القوانين الاساسية لدولة اسرائيل » ـ نيويورك ١٩٦٠ ـ ص ١٥٦) .

وباسم هذا التمييز العنصري الذي ينقل الانتماء اليهودي عن طريق الام لم يتزوج نساء عربيات سوى ثلاثة من اليهود منذ قيام دولة اسرائيل .

وأما زعم استخلاص ثيوقراطية بالية من الكتاب المقدس على طريقة « السياسة المستخلصة من الكتاب المقدس عند بوسيه » لتبرير « الحق المقدس » للملوك ، فان على القادة الاسرائيليين أن يذكروا انه وجد في كل أوروبا يهود وهفوا ضد « الحق المقدس » ليضعوا البيان العالمي لحقوق الانسان ، وان من الزيغ الاجرامي في القرن العشرين أن نتافق على انفسنا زاعمين ان ثمة « حقا مقدسا » لشعب مختار .

٢ ـ وكما يتضمن الاساس الديني للصهيونية تصورا قبليا للدين فان المطالبة « بالحقوق التاريخية » لليهود في فلسطين تستند الى تعمية وتزييف تاريخيين . فالبلاد التي يسميها الكتاب المقدس ارض كنعان ، والتي سميت بفلسطين منذ أيام الرومان (أي أرض الفلستينيين) تقع على « الهلال الخصيب » الذي يمتد من الفرات الى النيل ، وهو موقع تاريخي عبرته وامتزجت فيه كثير من الشعوب. وحين جاءت قبائل ابراهام في القرن الثاني عشر قبل الميلاد من أراضي أور فيما بين النهرين لتستقر في أرض كنعان فانها لم تأت الى صحراء مهجورة ، ولم تكن أول من يقطن هذه الارض ، فقد وصل اليها الاموريون قبلهم بثمانمائة عام ، وجاءها الاراميون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وبعدهم بقليل نزل الفلستينيون في المنطقة الساحلية ، ولم يطرد داود الفلستينيين والاراميين ـ نحو ألف عام قبل الميلاد ـ الا عن طريق الحرب .

ثم أصبحت البلاد بعد ذلك اقليما اشوريا في القرن الثامن قبل الميلاد ، وغدت فيما بعد اقليما رومانيا ثم فارسيا ثم عثمانيا قبل أن تنتقل الى أيدي المستعمرين الانكليز .

فأي تلاعب تاريخي هذا الذي لا نذكر من هذا التاريخ كله سوى بضعة أحداث : هجرة ابراهيم من بين كل الهجرات ، ومملكة داود من بين كل الممالك ، وثورة المكابيين من بين كل الثورات .

ان هذه النزعة الاستبعادية عارية من الاساس تماما ، كما لو زعم البريتون ـ وهم أحفاد السلت الذين أقاموا في الارض التي أصبحت اليوم فرنسا في العصر الذي هاجر فيه ابراهيم الى أرض كنعان ـ ان فرنسا ملك لهم بحكم الحق التاريخي .

غير ان هذه الاسطورة التاريخية هي التي تغرس في أذهان الشباب الاسرائيلي في المدارس ، والاحداث التاريخيه ذات الاهمية في كتب التاريخ المدرسية الاسرائيلية هي تلك التي تخص اليهود وحدهم . ووفق ما يتلقاه هؤلاء الاطفال من تعليم لم يحدث شيء في فلسطين منذ ثورة بركوخبا في القرن الاول ، وتدمير الهيكل حتى هرتزل ومولد الصهيونية : لا مقدم الاسلام ، ولا الحملات الصليبية ، ولا غزو المغول، ولا معارك العرب ضد السيطرة العثمانية .

ان انكار الوجود على كل ما لبس يهوديا في اسرائيل سمة من سمات الروح الصهيونية . انه مبدؤها الاساسي

ان هرتزل لا يشير اشارة واحدة الى العرب في كتابه « الدولة اليهودية » (١٨٩٦) الذي كان الاساس الذي قامت عليه الصهيونية . وقد أكد هرتزل في عام ١٨٩٥ ان المشروع الصهيوني واضح للغاية وسهل للتحقيق : « اعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » وفي ذلك الوقت كان يعيش في فلسطين نصف مليون عربي .

وحين سئل أبنشتاين وايزمان (أحد القادة الرئيسيين للمنظمة الصهيونية العالمية) : « وماذا سيحدث للعرب اذا أعطيت فلسطين لليهود ؟ » أجاب وايزمن : « أي عرب ؟ انهم قليلو الشأن » .

وينبغي أن نذكر انه كان هناك في عام ١٨٨٢ ، حين بدأت الهجرة الصهيونية ، ٢٥ ألف يهودي في فلسطين بين نصف مليون من السكان. وفي ١٨ تموز ١٩٤٨ رد بن غوريون على الكونت برنادوت وسيط الامم المتحدة حين طلب منه أن يترك العرب يعودون الى ديارهم فقال : « سنفعل كل شيء حتى لا يعودوا أبدا » .

٣ ـ ومن هذا التصور القبلي للدين ، وهذه الاسطورة التاريخية تنبع الروح الاستيطانية للصهيونية ، التي تتسم بنفي حقوق الغير، وثقافة الغير ، ووجود الغير .

وكما قال بوري آفنيري النائب الاسرائيلي السابق : « يوجد في اسرائيل نظام استعماري فيما يتعلق بالسكان العرب » (هاعولام هازيه ٧ آب ١٩٥٤) .

وهذه الاستيطانية تلهم الصهيونية ، في نظريتها وفي ممارستها ، في سياستها الخارجية وفي سياستها الداخلية .

أ ـ ففي النظرية الصهيونية ، ومنذ البدء ، أي في كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » الذي أسس المذهب نقرأ « ان هذه الدولة اليهودية في فلسطين ستشكل جزءاً من متراس أوروبا ضد آسيا » . ويضيف : « سنكون موقعا اماميا للحضارة ضد البربرية » . وتلك ذريعة يتذرع بها كل المغامرين الاستعماريين .

ومن الواضح ان هذه الفكرة تغري الاستعماريين من كل نوع ، ومن هنا فانهم لا يكفون عن التضامن مع دولة اسرائيل ، ومنذ عام ١٩٣٥ طرح اللورد ويدجوود فكرة اقامة الدولة اليهودية باعتبارها الدومنيون السابع في الكومنولث البريطاني . ويقول كوبستار : « وسيصبح كومنولث المهاجرين هذا رأس جسر للديمقراطية الاوروبية الى لبنان » ومن الممكن « في فلسطين ـ ووسط سكان من الاوروبيين المتعاطفين ـ اقامة قاعدة راسخة تتحكم في منافذ الشرق وقناة السويس » .

وكانت هذه هي الروح التي صدر عنها « وعد بلفور » في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ : « ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين . وسوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف » . وكانت انكلترا في ذلك الحين اكبر دولة استعمارية في العالم .

ويحدد كوبستار بشكل رائع هذا الاصل الاستعماري لفكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين فيقول : « انه وثيقة تعد فيه أمة رسميا أمة أخرى ببلاد أمة ثالثة » . وهكذا في الواقع يعمل الاستعماريون في كل

مكان ويتصرفون في الشعوب دون استشارتها .

ب ـ ان التحالف مع الامبرياليين والاستعماريين ـ في مجال السياسة الخارجية ـ سمة دائمة للصهيونية ولقادة اسرائيل .

فمنذ عام ١٨٩٠ كان تيودور هرتزل ـ ابو الصهيونية ـ يسعى للحصول على حماية بسمارك . وفي عام ١٨٩٨ اقترح على غليوم الثاني (وكان معاديا للسامية) اقامة دولة يهودية سنكسون « موقعا صغيرا للمصالح والحضارة الجرمانية » .

لقد بحث الصهاينه دائما عن التحالف مع دولة أجنبيه تتعارض مصالحها مع مصالح الشعوب العربيه . ففي العشرينات أسند اليهود على الانكليز ضد العرب في كل ما نجم عن الهجرة من صدامات بين الطائفتين . وعلى العكس في عام ١٩٤٠ ـ وكانت الحرب دائرة ضد هتلر ـ أقام ابراهام شتيرن منظمة ارغون السرية ضد الانكليز .

وبعد الحرب أصبحت الولايات المتحدة هي الامبريالية الاقوى ، ووجدت فيها الصهيونية حليفها الرئيسي ، اذ كان ترومان من أنصار الهجرة اليهودية غير المحدودة الى فلسطين .

وفي عام ١٩٥٦ ، حين عجزت الحكومة الفرنسيه عن ادراك ان الحركة الوطنية الجزائرية هي تعبير عن ارادة عميقة لدى الشعب الجزائري وتصورت انها من تدبير القاهرة ، ارتبطت اسرائيل بها وبالانكليز لتنظيم حملة ضد قناة السويس .

وقادت نفس الروح الاستعمارية دولة اسرائيل الى التصويت في الامم المتحدة ضد استقلال الشعوب الافريقية ، والارتباط بالبرتغال الفاشمة ضد انغولا وموزامبيق ، وبصنائع فيتنام الجنوبية ضد الشعب الفيتنامي ، وبالدول العنصرية في جنوب افريقيا .

٤ ـ ونفس الروح الاستعمارية تتحكم في السياسة الداخلية لدولة اسرائيل ، فثمة تمييز ، حتى داخل اليهود ، بين أولئك القادمين من أوروبا وأولئك القادمين من اميركا ، بين « الاشكيناز » والقادمين من دول ليست بالغربية من المشرق أو من المغرب « السفارديم » ، وثالثا العمال غير المؤهلين هم من اليهود غير الغربيين ، وبالرغم من انهم يشكلون ٥٠ ٪ من السكان فليس لهم سوى ٢٠ نائبا بين ١٢٠ نائبا يضمهم الكنيست .

غير ان التمييز صارخ تماما تجاه العرب . فحتى قبل حرب ١٩٦٧ لم يكن العرب يشغلون سوى ٢ ٪ من المناصب الادارية ، وكلها من المناصب الثانوية . ولا يوجد عربي واحد في منصب القضاء أو في الوزارة . وكان لهم ٧ نواب في الكنيست بين ١٢٠ نائبا . وحتى في القطاع الخاص فان العرب الذين يشكلون الآن ١٣ ٪ من السكان لا يمثلون سوى ٤ ٪ في الجامعات أو البنوك أو المكاتب . ويعمل غالبيتهم عمالا زراعيين أو عمال بناء .

غير ان السياسة الاستعمارية تجاه العرب تتجلى على وجه خاص في الاتجاهات الرئيسيه الثلاثه للصهيونية في مجال السياسة الداخلية : أرض يهودية ، وعمل يهودي ، وثقافة عبرية .

أ ـ فقد بدأ الصهاينة ككل الاستعماريين بالاستيلاء على الارض أولا عن طريق العنف في عام ١٩٤٨ ـ اذ ولدت اسرائيل عن طريق الحرب ـ ثم بأساليب اغتصاب من نفس طراز أساليب الاستعمار .

وعلى سبيل المثال ، نشر الجيش الاسرائيلي الارهاب بذبح قرى بأسرها بما فيها من رجال ونساء وأطفال كما حدث في دير ياسين (ليلة ٩ ـ ١٠ نيسان ١٩٤٧) ، وكما حدث في القدس ويافا واللد والرملة التي انصبت عليها النيران ، ولاذت مئات العائلات الفلسطينية بالفرار هربا من الموت . وأصدر القادة الاسرائيليون عندئذ « مرسوم الطوارىء بشأن ملكية الغائبين » في ١٩٤٨ (وقد أصبح هذا «المرسوم» قانونا في عام ١٩٥٠) واعتبر كل الفلسطينيين الذين غادروا ديارهم قبل أول آب ١٩٤٨ من « الغائبين » . وعلى هذا النحو صودر ثلثا الاراضي المملوكة للعرب (٧٠ الف هكتار من ١١٠ آلاف هكتار) .وعندما صدر في عام ١٩٥٣ قانون الملكية العقارية حددت التعويضات على أساس قيمة الارض في عام ١٩٥٠ ، ولكن الليرة الاسرائيلية كانت قد تعرضت لتخفيض قيمتها خمس مرات خلال تلك الفترة .

ومن ناحية أخرى كانت قد بدأت مع الهجرة اليهودية ، وبنفس الاسلوب الاستعماري السافر ، عمليات شراء الاراضي من الملاك الاقطاعيين (الافندية) غير المقيمين ، بحيث طرد الفلاحون الفقراء من الارض التي كانوا يفلحونها نتيجة الترتيبات التي تمت من وراء ظهورهم بين سادتهم القدامى والقادمين الجدد . ولم يعد امامهم ، بعد أن جردوا من أرضهم ، سوى الفرار .

وكثيرا ما يتذرع الصهاينه بأن الاراضي على هذا النحو كانت بورا او لا تفلح بعناية ، وكأنهم جاءوا الى صحراء جرداء . وهم بهذا يتجاهلون ان العرب كانوا يعيشون في وضع استعماري : كانت البلاد الاستعمارية الغربية (فرنسا وانكلترا) تنزح ثرواتهم ، وكانوا ، شأن كل الشعوب المستعمرة ، يرزحون تحت الامية . على حين كان اليهود الغربيون القادمون قد تلقوا ثقافة تماثل ثقافة المستعمرين . وفيما يتعلق بمعدات الزراعة ، كانت الاموال تتدفق عليهم من أوروبا واميركا، مما أتاح لهم استخدام تقنيات زراعية لا يمكن أن تقارن بمثيلتها بالفلاحين الذين فرض عليهم النظام الاستعماري الفقر والبؤس . فخلال الفترة بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧١ بلغت الاموال التي أرسلها يهود الشتات الى اسرائيل مليارا و ٢٠٠ مليون دولار .

وعندما أخذت دولة اسرائيل مكان المستعمرين القدامى استخدمت نفس الوسائل : فالمساعدات الزراعية في مجال الري كانت توزع بطريقة تنطوي على التفرقة في المعاملة وعلى محاباة دائمة للمزارعين اليهود : فخلال الفترة بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٩ ، زادت مساحة الاراضي المروية في القطاع اليهودي من ٢٩ ألف الى ١٦٤ ألف هكتار ، بينما زادت في القطاع العربي من ٨٠٠ الى ٤١٠٠ هكتار . وهكذا ظل النظام الاستعماري قائما بل أصبح أشد وطأة . ويعترف الدكتور روزنفيلد في كتابه « العمال العرب المهاجرون » الذي نشرته الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٧٠ ، بأن الزراعة العربية كانت أحسن حالا في ظل الانتداب البريطاني منها اليوم .

ب ـ ولم يكن شعار « العمل اليهودي » أقل فتكا من شعار « الارض اليهودية » الذي سبقه : كانت الصهيونية حريصة من البداية على عدم توفير العمل الا لليهود . فقد ظلت النقابات بالغة القوة المنضوية في « الاتحاد العام للعمال العبريين في ارض اسرائيل » (الهستدروت) ترفض طويلا قبول العمال العرب في صفوفها . وحين ألغيت في عام ١٩٦٦ كلمة « عبري » من اسم النقابات أعلن بن غوريون احتجاجه على ذلك . وينطبق نفس الشيء على الحزب الحاكم في اسرائيل ، فهذا الحزب « العمالي » كما يزعمون يعلن رسميا وبصراحة انه لا يقبل في صفوفه سوى اليهود ويرفض الاغيار (جوييم) .

ويؤكد القادة الاسرائيليون ان ثمة انخفاضا قد حدث في البطالة بين العرب الفلسطينيين منذ عام ١٩٦٧ . وصحيح ان ٥٠ الف عربي يعملون الآن في المنشآت الاسرائيلية بعد أن تعرضوا لاقصاء طويل عن العمل ، ولكن ظروف عملهم ما زالت هي نفس الظروف التي كان يعمل فيها كل الخاضعين للاستعمار : فعند تساوي المؤهلات يتراوح الفارق بين أجر العامل اليهودي والعربي بين ٣٠ و ٥٠ بالمائة .

كما تتجلى التفرقة في سياسة الاسكان ايضا ، فالدكتور اسرائيل شاحاك رئيس الرابطة الاسرائيلية والاستاذ بالجامعة العبرية بالقدس يخبرنا في كتابه « العنصرية في دولة اسرائيل » (ص ٥٧) ان في اسرائيل مدنا كاملة (الكرمل ، الناصرة ، ايليت ، هاتزور ، أرد ، ميتزب ـ رامان وغيرها) يمنع فيها رسميا سكنى غير اليهود .

ج ـ وتسود نفس الروح الاستعمارية على الصعيد الثقافي . ولن نستطيع تعريف هذه الروح بأفضل مما صنعه أوري أوريـاني

مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي للشؤون العربية حين قال : « لا ريب ان من الافضل ألا يكون هناك طلاب عرب . ولكن هناك اشياء لا تتوقف علينا ولا نستطيع تجنبها وينبغي علينا أن نبحث عن طريقة لتقليل الاضرار » .

ان الحضارة العربية وتاريخها يتعرضان لتجاهل كامل على نحو ما كان يحدث في ظل الاستعمار البريطاني أو الفرنسي . ومن الامور ذات الدلالة ان ٤ بالمائة فقط من الطلاب المتقدمين لامتحانات البكالوريا في اسرائيل ـ وكل جيرانها من العرب ـ يدرسون اللغة العربية كلغة ثانية .

انهم يريدون أن يمحوا من أذهان الفلسطينيين أي ذكرى عن ثقافتهم وتاريخهم . فالطلاب العرب يجبرون على دراسة التاريخ اليهودي بأكثر مما يدرسون تاريخهم هم : فالوقت المخصص لدراسة الكتاب المقدس يبلغ ستة أمثال المخصص لدراسة القرآن .

ان مجمل السياسة الاستعمارية العنصرية القائمة على مبادىء الارض العبرية والعمل العبري والثقافة العبرية ، قد عرفه الجنرال موشي دايان تعريفا رائعا في عام ١٩٦٧ . فحين سئل عن مقدرة اسرائيل على استيعاب السكان العرب في حالة ضم الاراضي المحتلة الى اسرائيل ، أجاب : « اننا قادرون على ذلك من الناحية الاقتصادية ، ولكنني أعتقد أن هذا لن يتمشى مع خططنا المقبلة . ذلك انه لن يتمخض عن دولة يهودية بل عن دولة مزدوجة القومية ، دولة عربية ـ يهودية . ونحن نسعى الى دولة يهودية » . وهذا تصريح لا تنقصه ميزة الوضوح البالغ .

والواقع ان هذا يمثل القيد الوحيد على الاطماع الاقليمية للزعماء اليهود . واذ يبلغ معدل المواليد ٢٤٢ في المائة بين اليهود ، و ٤٤٤ في المائة بين العرب ، فقد أعلنت غولدا مائير انها تواجه كابوسا مزعجا حين تفكر « في المواليد الفلسطينيين » .

ان الصهيونية تكرس بالضرورة دولة اسرائيل للتوسع ، ذلك انه اذا جاء الثلاثة عشر مليون يهودي الذين يعيشون في العالم لبية لنداء الصهاينة ، فان مشكلة « المجال الحيوي » لاسرائيل ستطرح نفسها بحدة . فاليثولوجيا الصهيونية تمنع اسرائيل من أن تكون دولة قومية ، كالدول الاخرى . لكن الواقع ان الذين جاءوا لتحقيق « الوعد » لا يمثلون سوى أقلية ضئيلة من بين الذين يقيمون في اسرائيل . فقد كان اثر « قانون العودة » بالغ الضآلة ، وكان هذا من حسن الحظ ، ذلك لان اليهود في كل بلاد العالم قد نهضوا بدور بارز في كل مجالات الثقافة والعلم والفن ، وسيكون من المحزن أن تحقق الصهيونية الهدف الذي حدده مناهضو الساميه لانفسهم ، الا وهو انتزاع اليهود من أوطانهم لوضعهم في غيتو عالمي . واليهود الفرنسيون مثل بالغ الدلالة في هذا الصدد ، فبعد توقيع اتفاقيات ايفيان في عام ١٩٦٢ وتحرير الجزائر ، غادر الجزائر ١٣٠ الف يهودي ، لم يذهب منهم الى اسرائيل سوى ٢٠ ألفا بينما ذهب الى فرنسا ١١٠ آلاف يهودي . ولم تكن هذه الهجرة نتيجة لاضطهاد حماد للسامية ، لاننا نجد نفس النسبة بين المستوطنين الفرنسيين غير اليهود الذين تركوا الجزائر ، ولم تكن مناهضة السامية سبب هذه الهجرة ، بل كان سببها الاستعمار الفرنسي السابق للجزائر ، وقد عرف اليهود الفرنسيون نفس المصير الذي عرفه الفرنسيون الآخرون في الجزائر .

بالاختصار ، فان المهاجرين اليهود الى اسرائيل يجيئون كلهم تقريبا هربا من الاضطهاد المناهض للسامية .

ففي عام ١٨٨٠ بلغ عدد اليهود في فلسطين ٢٥ ألفا من مجموع سكانها البالغ عددهم ٥٠٠ الف نسمة .

وابتداء من عام ١٨٨٢ بدات الهجرة الواسعة النطاق بعد المذابح الكبرى ضد اليهود في روسيا القيصرية .

وهكذا وصل ٥٠ ألف يهودي الى فلسطين خلال الفترة من عام ١٨٨٢ الى عام ١٩١٧ . ثم جاء اليها بعد ذلك ـ خلال فترة ما بين الحربين ـ المهاجرون البولنديون ومهاجرو المغرب فرارا من الاضطهاد .

ولكن الكتلة الاكبر جاءت من المانيا بسبب السياسة البشعة المناهضة للسامية التي انتهجها هتلر : فوصل على هذا النحو قرابة ٤٠٠ الف يهودي الى فلسطين قبل عام ١٩٤٥ .

وفي عام ١٩٤٧ ، أي في عشية انشاء دولة اسرائيل ، كان هناك ٦٠٠ الف يهودي في فلسطين من مجموع سكانها البالغ مليونا و ٢٥٠ الف نسمة .

وبدأت عندئذ عملية منظمة لنزع الفلسطينيين عن أرضهم . فقبل حرب عام ١٩٤٨ كان هناك ٦٥٠ ألف عربي يعيشون في الاراضي التي اقيمت عليها فيما بعد دولة اسرائيل . وفي عام ١٩٤٩ كان كل ما بقي منهم هو ١٦٠ الفا . وبسبب ارتفاع معدل المواليد أصبح عددهم ٤٥٠ الفا في نهاية عام ١٩٧٠ . وقد كشفت الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان ان اكثر من ٢٠٠ ألف بيت عربي قد نسف في اسرائيل والضفة الغربية خلال الفترة بين ١١ يونيو ١٩٦٧ الى ١٥ نوفمبر عام ١٩٦٩ .

معنى هذا ان الصهيونية تفرض على الفلسطينيين نفس المصير الاليم الذي تعرض له ضحايا المذابح الاجرامية ضد اليهود .

ويهمني أن أقول بوضوح ان العدل يقتضي ان يكون للمضطهدين ـ وهو وصف ما ينطبق على اليهود في الماضي وبخاصة في روسيا وبولندا والمانيا ـ ملاذ ووطن .

ولكن لماذا ينبغي على الشعب الفلسطيني أن يدفع ثمن جرائم هتلر والقياصرة الروس ، وجرائم العنصرية ومعاداة السامية في العالم كله ، وهي جرائم لا مسؤولية فيها على الاطلاق للشعب الفلسطيني ؟

لقد كان تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية يتصور هو نفسه عدة حلول ممكنة (وهي جميعا مستمدة من نفس الروح الاستعمارية) : توطين اليهود في الارجنتين أو في كينيا أو في قبرص ، أي في أراض تسيطر عليها الامبريالية .

وغداة الحرب العالمية الثانية ، أي بعد أن ذبح النازيون بوحشية ستة ملايين يهودي ، كان من الطبيعي أن تقدم جمهورية المانيا الاتحادية أحد أقاليمها الى اليهود كملاذ لهم على سبيل التعويض .

ان مصيبة دولة اسرائيل ، تتمثل في انها خلقت بأيدي الدول الاستعمارية الكبرى وفقا لمبادىء الاستعمار : فعلى حين كان اليهود في عام ١٩٤٧ يملكون حوالي ٦ بالمائة من الارض ، جاء مشروع التقسيم الذي وضعته حينذاك الدول الغربية ليعطيهم ٥٤ بالمائة من الارض ، واحتل الصهاينة ٨١ بالمائة في واقع الامر عن طريق العنف والحرب .

وهذا الظلم الذي لحق بالفلسطينيين الذين طردوا من اراضيهم ، وشتتوا ، هو أصل كل النزاعات التي نشبت منذ ذلك الحين . وقد تفاقم هذا الظلم في يونيو ١٩٦٧ ، فقد قام السلاح الجوي الاسرائيلي دون اعلان للحرب بتدمير الطيران المصري ، مقلدا بذلك الطريقة التي استخدمها الفاشيون اليابانيون حين حطموا الاسطول الاميركي في بيرل هاربور .

ومنذ ذلك الحين لم يحترم القادة الصهاينة قط قرارات مجلس الامن او النداءات التي وجهها اليهم ، وواصلوا احتلال الاراضي الفلسطينية التي استولوا عليها بعد « حرب الايام الستة » .

* * *

ما هي اذن الحلول الممكنة لهذا النزاع الدائم الذي يعد اثرا

من آثار الاستعمار ؟

لقد عرض ياسر عرفات المشكلة بوضوح في الامم المتحدة حين تحدث في ١٣ نوفمبر ١٩٧٤ عن موقف منظمة التحرير الفلسطينية فقال : « ان ثورتنا لا تنطلق من مواقف عنصرية او دينيه . فهي ليست موجهة ضد الانسان اليهودي بوصفه يهوديا ، بل ضد الصهيونية العنصرية والعدوان . فنحن نناضل حتى يستطيع اليهودي والمسيحي والمسلم ان يعيشوا معا على قدم المساواة دون أي تمييز عنصري أو ديني . ونحن لا نفرق بين اليهوديه والمسيحية . فنحن نعارض الصهيونية الاستعمارية ولكننا نحترم الدين اليهودي لانه جزء من تراثنا » .

ان المشكلة الفلسطينية لا يمكن أن تحل الا بمثل هذه الروح ، اي بوضع حد لكل المناورات الخارجية للامبريالية ، وبالاعتراف بحق الجميع في تقرير المصير وفي العودة الى أراضيهم . وهذه العودة الى الارض لا يطالب بها الفلسطينيون باسم « حقوق تاريخية » مزعومة يعود تاريخها الى آلاف مضت من السنين ، وانما باسم العدالة الراهنة لا اكثر ، ومن أجل حقهم في العمل على الارض التي انتزعت منهم وحقهم في الا يكونوا غرباء في وطنهم .

وليس هناك من شك في ان الطريق سيكون طويلا ، وانه لا مفر باستعباد الفلسطينيين أو بتدمير اسرائيل .

فكما يقول ياسر عرفات : « لقد عرف شعبنا على امتداد سنوات طويلة ويلات الحرب والدمار والتشريد والطرد والارهاب ... ولكن هذا كله لم يجعلنا عنصريين . ولهذا السبب فاننا نشعر بالالم للفرقة التي عانى منها اليهود بسبب معتقداتهم » . وعلى هذه القاعدة يمكن أن تنشأ ـ كما تقترح منظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧ ـ دولة ديمقراطية وعلمانية يعيش فيها اليهود والعرب كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات .

ولكي يصبح تقرير المصير ممكنا ، هناك عدة شروط مسبقة لا بد من توفيرها : ينبغي أولا أن ينهي القادة الاسرائيليون احتلالهم للاراضي التي استولوا عليها في عام ١٩٦٧ ، وهو الامر الذي لم تكف الامم المتحدة عن المطالبة به .

ولا يمكن بعد ذلك أن يكون هناك حل سلمي للمشكلة طالما استمر القادة الاسرائيليون في انتهاج سياسة صهيونية تدفعهم الى التوسع وتمنع اسرائيل من ان تكون دولة قومية كالدول الاخرى . ان الصهيونية هي الد أعداء اسرائيل ، فهي اذ تجعل من اسرائيل جيبا غربيا في الشرق الاوسط وتمنعها من الاندماج في مجموع شعوب الشرق الاوسط ، تحكم على اسرائيل بوضع شبيه بوضع الصليبيين المسيحيين منذ ثمانية قرون .

وفي سبتمبر ١٩٦٧ شبه الجنرال اسحق رابين ، القائد الاعلى للجيش الاسرائيلي ، موقف الصهاينة بموقف الصليبيين . وينبغي أن يتأمل الصهاينة هذه المقارنة .

فالصهاينة يبحثون مثل الصليبيين عن تبرير ديني ، وهم يرفضون مثلهم الاندماج في السكان المحليين ، ويعتمدون فقط على التفوق العسكري . والصهاينة مثل الصليبيين يعتمدون على التدفق المستمر لرؤوس الاموال القادمة من الغرب في صورة تبرعات واسلحة ورسوم حج . لكن الصليبيين انتهوا بفشل ذريع : فبعد حروب استغرقت ثمانية اجيال ، واستمرت منذ الاستيلاء على القدس في عام ١٠٩٩ حتى رحيل آخر صليبي من عكا في عام ١٢٩١ ، طرد الصليبيون الى البحر .

ان على الشعب الاسرائيلي ان يتأمل هذه التجربة التاريخية ، وان يدرك ان الصهيونية تقوده الى حالة من الحرب الدائمة على المدى القصير والى الاخفاق الكامل على المدى الطويل .

اما اذا وعى الشعب الاسرائيلي أخطار الايديولوجية الاستعمارية للصهيونية ، فانه يستطيع آن يقيم مجتمعا لن يكون عندئذ ثيوقراطية انقضى عهدها بل سيكون مجتمعا علمانيا متسامحا ، وسيتاح له بوجه خاص الفرصة لكي يندمج باخلاص في مجموع الشرق الاوسط بدلا من أن يكون جيبا غربيا معزولا .

صحيح أنه توجد عقبات أخرى امام اقرار سلام دائم يقوم على حق تقرير المصير في فلسطين ، والنظام الملكي الهاشمي الحالي في الاردن هو الذي يشبه الثيوقراطية الاسرائيلية ، ويضع يده على أرض فلسطينيه ، وينواطأ مع اسرائيل والولايات المتحدة في ذبح الفلسطينيين في الاردن خلال « ايلول الاسود » عام ١٩٧٠ .

وليست المشكلة الفلسطينية مشكلة حدود ، ولا هي مشكلة جنس ، ولا مشكلة دين ، انها ليست مشكلة « حقوق تاريخية » ، فليس لاحد في العالم « حق تاريخي » مزعوم ممتاز يقوم على أسطورة ، سواء كانت « عبء الرجل الابيض » « برسالته المدنية » المزعومة التي تغنى بها رينشارد كيبلنج كداعية للاستعمار الانكليزي ، ام كانت أسطورة « الجنس الآري » كجنس مختار التي استخدمها هتلر لتبرير مزاعمه عن الفراغ الحيوي ، أو الايديولوجيه الصهيونية المهلكة للفلسطينيين والقاضية على الاسرائيليين .

ان المشكلة الفلسطينية مشكلة سياسية واجتماعية . ومفتاحها هو الاعتراف للجميع بحق تقرير المصير .

ونظرية « الحقوق التاريخية » ستقود حتما الى اعادة تشكيل خريطة العالم بقنابل المدافع .

وينبغي لنا أن نتأمل مثال افريقيا . فلا شك ان الحدود الراهنة لغالبية الدول الافريقية هي من تركة الاستعماريين ، الذين قطعوا أوصال افريقيا بشكل تعسفي في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ وفق مصالحهم وحدها . وبعد الاستقلال توفر لرؤساء الدول الافريقية من الحكمة ما دفعهم الى عدم تغيير هذه الحدود . ولا شك ان افريقيا كانت ستغرق في النيران لو انهم ارادوا ـ باسم « الحقوق التاريخية » ـ بعث امبراطورية المانديتج مثلا او امبراطورية سنغاي او سيادة البوهل . وليست هذه الحكومة سوى المرحلة الاولى الى أن تتوفر وحدة افريقية راسخة حقا ، لا على أساس الحقوق التاريخية » اي على أساس الماضي ، وانما على اساس اشكال التعاون بين الافريقيين التي تتمشى مع المطالب الجديدة للشعوب ، اي على أساس المستقبل .

وفي وجه كل اشكال الاستعباد العنصري أو الديني أو الحضاري التي تتخفى بستار « الحقوق التاريخية » ليس ثمة من حل الا عن طريق الحرص الشامل على النظر الى الانسان الآخر . ان الانسان الذي يختلف عني ، كجزء من ذاتي ، هو وحده الذي يمكن ان يجعل مني انسانا كاملا .

قال ماركس : « ان شعبا يقهر غيره لا يمكن ان يكون شعبا حرا » .

وقد اكد ياسر عرفات ان الفلسطينيين لا يستلهمون روح العنصرية ولا الثار ، وانما يقودهم الحرص على وضع حد للانغلاق ، وعلى أن يكسبوا للجميع الحق في تقرير المصير . وعن هذا الطريق وحده يمكن لفلسطين ـ كما لغيرها من انحاء العالم ـ أن تبني مستقبلا انساني اللامع .

روجيه غارودي